

## بين الشروق والغروب

فى كتابى الأخير (رحلتى مع الطب النفسى) والذى صدر فى عام 2004م ذكرت أننى بصدد كتابة مذكراتى فى كتاب (بين الشروق والغروب) وقد كتب مقدمة كتاب (الرحلة) الصديق الوفى والاعلامى المتميز البروفسير على محمد شمو استاذ علوم الاتصال بجامعة ام درمان الاسلامية مهيبا بالسودانيين فى كافة تخصصاتهم ان يكتبوا مذكراتهم وهى ضرورة وثائقية هامة وليس تضخيما للذات .. أو اعلانا عن الانجازات (وليست حديثا عن النفس بل هى تراث للامة تستنبط منه الماضى و التاريخ.. بحيث تكون روايتها و الحديث عنها بعد مرور الأزمان والحقب جزءا من التاريخ) لتواصل الاجيال وربط التجربة الانسانية فى المقدمة والمؤخرة ..راجع المقدمة ص 14 (رحلتى مع الطب النفسى)

وحينها كنت أقول ان كتابى ليس (سيرة ذاتية) ولكنه حديث عن عمل فى مجال الطب النفسى ورحلتى فى خفايا ودهاليز ذلك المجال بكل سلبياتها وإيجابياتها أنتظر رأى الباحثين فيها للقياس و التقويم وأنا على قيد الحياة أشاركهم هموم المهنة و أتطلع للأستفادة من آرائهم فيها.

ولكن السيرة الذاتية .. يجب ان تتسع وتنداح لتشمل كل مناحى الحياة ومراحل العمر من الطفولة وحتى الكهولة .. وبما أن الأخيرة لا يعلم نهايتها غير الله جلت قدرته .. فيبقى باب الاجتهاد مشرعا .. وباب الامانى مفتوحا على دفتيه .. كما يقول الشاعر أبو الطيب المتنبى:

**كلما أنبت الزمان قناة ... ركب المرء فى القناة سنانا**

وكلما تقدم العمر بالانسان .. متمتعا بالصحة والعافية .. أدرك ان الدرب طويل وما زال فى العمر بقية قبل ان يرفع القلم وتجف الصحف ويكتب السطور الأخيره .. فيؤجل مشروع الكتابة فى السيرة الذاتية منتظرا حسن الختام .. ونهاية الاجندة .. التى لا تنتهى الا بكتابة اجندة جديدة .. وهذه لذة الحياة .. ونعمة الخالق .. أن يعطيك من العمر فسحة لتصحيح الخطأ .. وتحديد المسار .. واعادة صياغة السيرة .. وفى التعلق بهذا الخيط الرفيع من الأمل تبقى السيرة مرتبطة باحداث فى المخيله .. وأمانى فى القلب .. وفكرة فى العقل فى انتظار الولادة .. هكذا كان شأن كتاب (بين الشروق والغروب) مازال ينتظر اللمسات الأخيرة فى استديو الاخراج وأمل ان يرى النور قريبا .. ولأن الانسان يتصور ان (بكرة أحلى) وقد ينتظر مشروعا يكون بمثابة الكأس الذهبية فى مراثون الحياة أو الهدف الذهبى فى المباراة

الختامية أو النهاية السعيدة فى مشوار العمر .. يؤخذ على غفلة وقد يجد أن ورثته تبينوا المشروع بعد الرحيل المفاجئ وأضافوا بعض التفاصيل الخافية .. ونسأل الله حسن الخاتمة ..

أقول هذا وقد تذكرت فى مطلع السبعينيات دورة تدريبية فى (معهد تافستوك) لعلم النفس التحليلى فى لندن حول (سيكولوجية التقاعد) ..وقد كنت أدرس فى جامعة لندن فى (وحدة الطب النفسى للمسنين) وكانت الدورة حول كيفية التهيئة النفسية للمسنين قبل ان يحالوا للتقاعد اختياريا أو اجباريا .. كيف يتعاملون مع المرحلة الجديدة من العمر .. وكيف يبدأون حياتهم من جديد .. وما هى متطلبات الحياة وهذه المرحلة العمرية وقارنت بين ورشة عمل حول (رعاية المسنين) فى بداية التسعينيات فى أبوظبي نظمها الهلال الأحمر الاماراتى - و هو من أكبر المؤسسات الخيرية الانسانية على نطاق العالم أجمع - مع مستشفى الطب النفسى .. وقارنت بين الرؤية المستقبلية بين (معهد تافستوك) فى لندن آنذاك .. واجتهادات (دورة رعاية المسنين) فى أبوظبي الآن التى تضمنها كتاب (جناح الرحمة) وقد شاركت فى صياغة موضوعاته مع اللجنة الاستشارية ..

لقد وضح الآن أن العالم يشهد نقلة نوعية فى نمو المجتمعات .. حيث تدل احصائيات البنك الدولى ان بحلول عام 2030 م سوف يكون معدل عمر الرجل 70 سنة ومعدل عمر المرأة 80 سنة .. فيما تقل معدلات نمو شريحة وأعمار الأطفال وتعدادها بفعل تنظيم الأسرة .. وحوادث الطريق .. ووباء الايدز والمخدرات .. ثم امراض السمنة و كوارث المجاعات .. فيما يزداد تعداد شريحة المسنين ومعدلات اعمارهم فى العالم أجمع بفضل ارتفاع الوعى وتطور الرعاية الصحية فى وقت يقبل فيه العالم على ثورة تكنولوجية يتعامل معها بشرائح مجتمعات شائخة تفتقر الى الطاقة الذهنية وتعيش على الكفاف وتعتمد على الدعم الاجتماعى والمعاش الحكومى ..مقابل شريحة طفولة متناقصة متآكلة بنيران الحروب والفقر والمجاعات فى الدولة النامية وبشور العوازل كلها مجتمعة فى الدول المتقدمة ..يبدو - للأسف - وكأنه (عالم بلا مستقبل) ..

فكيف تتم العولمة فى عالم أنقلب فيه الهرم التقليدى فى نمو المجتمعات من انحسار الطفولة وارتفاع الشيخوخة ..

فرايت ان كتابى (بين الشروق و الغروب ) قد يحمل بشرى للشيوخ .. لا تسر المجتمع .. ونزر شؤم للأطفال لا تسعد العالم .. وقد تربك حسابات المخططين الذين دائما ما يؤخذون على غرة لانهم لا يعتمدون على الدراسات فى تخطيط السياسات ورؤية أخرى - أشبه بالمريض الذى يرى العافية تاجا على رؤوس الأصحاء لا يراه غير المرضى - يقول أنه بعد الشفاء سوف يفعل .. ويفعل .. ويفعل وعندما يسبغ الله عليه نعمة الشفاء .. قد يتنصل من التزاماته المعلنة

بدعوى الأنشغال بكتابة أجندة جديدة .. يملها ذلك الاحساس الخفى المتشبت بنزعة روحية..  
أن ليس هنالك أحدا اكثر تمسكا بالحياه من الذى يتقدم به العمر..

ورغم ان هذه النظرة تفاؤلية ومطلوبة بالدرجة الأولى لتخفف من غلواء مجتمعاتنا التى تحدد  
أقامة المسن .. وتكتب له وصفة سلوكية وتحيطه بنظرة اجتماعية تنتهى به الى التقاعس ..  
والعجز .. والكآبة .. وفقدان الحركة .. والحياة عالتة على الآخرين .. تم يضيق الجميع ذرعا  
بكل هذه القوالب التى شاركت فى وضعه فيها .. حين حرمته العمل بحجة الشفقة عليه ..  
ومنعته من الحركة خوفا عليه .. وحددت اقامته احتراماً لمكانته .. وحصرت نشاطاته رحمة  
به وعزلته بعيداً عن روح مشاركتها تقديساً لشيبته .. وعندما صار يعانى من الاعاقة  
الجسدية والنفسية ذهبت به الى دور المسنين – الخطوة الصحيحة فى الاتجاه الخاطئ .. فهو  
يحتاج الى دار وليست مصحة .. وليس أفضل من البيت داراً ومن الأهل جواراً..

عودا الى الحديث عن الكتاب .. وأجندتى الجديدة والمعلقة .. وقراءتى فى (سيكلوجية  
التقاعد) ورؤيتى العلمية الى (رعاية المسنين) فى المجتمعات الحديثة .. فقد أصبحت كتابة  
المذكرات أحد وسائل الاعلان عن الاعتزال للحياة .. والتوقف عن المشاركة فى الفعل ..  
والاكتفاء بأضعف الايمان .. (قلوبنا معكم).. وحتى هذه القلوب ما عادت مؤثرة فى قلب  
المجتمع .

ورغم ادراكى المسبق لهذه الحقيقة فهى قطعاً ليست السبب فى تأخير المشروع ولكل أجل  
كتاب.. فقد وجدتني أبدأ عملاً جديداً بعد التقاعد رغم أنني أحد الذين أكرمهم الله بأجر  
الصدقة الجارية وفضل العلم النافع و نعمة الولد الصالح الذى يدعو له ويبر به .. و وجدتني  
أكتب مقالات جديدة بعد التقاعد .. وثابرت عليها فاذا بها تؤلف كتاباً يخرج للحياة مولوداً  
جديداً يسعى بين الناس يحمل اسم (الغربة .. نثراً وشعراً) ويدخل فى صفحات السيرة الذاتية  
(بين الشروق والغروب) وحتى ذلك الموعد رحم الله ابن أبى داؤود الذى كان يأكل من عمل  
يده ومازلت أتذكر الحديث الشريف: ( لأن يأخذ أحدكم حبله ويحتطب خبزاً له من أن يسأل  
الناس أعطوه أم منعهوه) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولن يضئع الله أجر من أحسن عملاً و العاقبة للمتقين..

الدكتور الزين عباس عمارة - أبوظبى